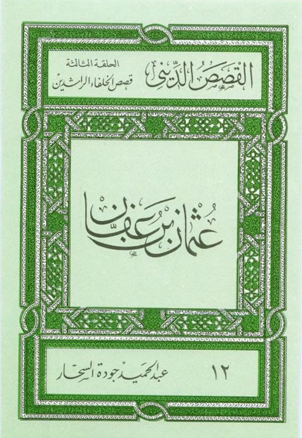


القصص الديني
الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين
عثمان بن عفان
عبد الحميد جودة السحار
١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

« مَنْ نَكَثَ فإنَّمَا يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ ، وَمَـن أوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ ، فَسَيُؤْتيه أجْرًا عَظِيمًا » .

(قرآن كريم)

١

دُفِنَ عمرُ بنُ الخَطاب ، بعد أن قتلَه أبو لؤلؤة ، وبعد أن جعلَ الخِلافَةَ فى عليٍّ وعثمانَ وسعْدِ بن أبى وقَّاص وعبدِ الرحمن بن عوْفٍ وطلحةَ بن عُبيدِ اللّه . وقد قابلَ العبّاسُ ابنَ أخيهِ عليَّ بنَ أبى طالب ، بعد أن طُعِنَ عمرُ وسألَه :

ــ ما العهدُ يا أبا الحسن ؟

قال عليّ :

ــ جَعَلها فى جماعةٍ زعَم أنّى أحدُهم .

فأطرق العبّاسُ قليلا ثم قال :

ــ يا بنَ أخى ، لا تدخلْ معهم ، وارفع نفسَك عنهم .

فقال عليٌّ فى رفق :

– إنى يا عمُّ أكرهُ الخِلاف .

فقال العبَّاسُ فى ضيق :

– إذنْ ترَى ما تكره .

وسرَى فى المدينةِ قَلَقٌ بعد دفنِ عمر ، فراح النَّاسُ يتساءلونَ عمَّن يكونُ خليفةَ المسلمين ، وأشفق المُشفقونَ على المسلمينَ أن ينشقّوا طوائفَ وشِيَعا ، وأن يدبَّ الخلافُ بينهم ، ولـمّا يستقرَّ الإسلامُ بعدُ فى الأمصارِ التى فتحوها ، وجعل المُخلِصونَ يدعونَ اللّهَ أن يُجنِّبهمْ فتنةَ الدُّنيا .

واتجه عليٌّ وعثمانُ وسعدُ وعبدُ الرَّحمن والزُّبيرُ وطلحة ، رهطُ الشُّورَى ، نحوَ غرفةِ عائشة ، ليجتمعوا فيها ، وينتخبوا من بينهم خليفةً للمسلمين ، وتقابلَ عليٌّ وعمُّه العبَّاس ، فقال عليّ :

– سعدٌ لا يخالفُ ابنَ عمِّه عبدَ الرَّحمن ، وعبدُ الرَّحمنِ صِهرُ عثمانَ لا يختلفون ، فيوليها عبدُ الرَّحمنِ

عثمان ، أو يوليها عثمانُ عبدَ الرَّحمن ، فلو كان الآخرانِ معى لا ينفعانى ، بَلْـهَ أنّى لا أرجو إلاّ أحدَهما .

فقال له العبّاس :

ـ لم أدفعْك فى شىءٍ إلاّ رجَعتَ إلَىَّ مُستأخِرًا بما أكره ! أشرتُ عليك عندَ وفاةِ رسول اللّه صلّى اللّهُ عليه وسلّم أن تسألَه فيمن هذا الأمرُ فأبيت ، وأشرتُ عليك بعد وفاتِه أن تُعاجلَ الأمرَ فأبيت . احفظْ عنّى واحدة : كلّما عرضوا عليك القول ، فقل : لا ، إلا أن يُولّوك .

ودخل علىٌّ حجرةَ عائشة ، ثم أقبلَ عثمان والزُّبيرُ وعبدُ الرَّحمنِ وسعد ، ولم يُقبل طلحة ، فقد كان غائبًا ، ودخل ابنُ عمر ، وجاءَ عمرُو بنُ العاص والمُغيرةُ بنُ شُعْبَة ، فجلسا بالباب ، فلَمحهما سعد ، فحصبَهما وأقامهما ، وقال لهما :

ـ أتُريدانِ أن تقــولا حضرْنــا وكنَّــا فــى أهــلِ الشُّورَى .

ودار النّقاش بينَ أهلِ الشُّورَى ، وكـثُر بينَهـم الأخذُ والرَّدّ ، والجذْبُ والشّدّ ، وجعـل كـلٌّ منهم يذكر فضلَه وأحقيّته بهـذا الأمـرِ دونَ الجميـع ، ومرَّتْ ثلاثةُ أيامٍ ولم ينتهوا إلى رأى ، فقـال عبــدُ الرَّحمنِ ابنُ عوف :

ـ أتدرونَ أىُّ يـومٍ هـذا ؟ هـذا يـومٌ عـزمَ عليكـم صاحبُكم (عمر) أن لا تتفرَّقوا فيه حتى تستخلِفوا أحدكم .

ـ أجل .

فقال عبد الرحمن :

ـ أيُّكم يخرج منها نفسَه ، ويتقلَّدُها علــى أن يوليها أفضَلكم ؟ (أى على أن يختارَ أفضلكم) .

سكتوا ، وساد السكونُ برهة ، ثم قـال عبــد الرحمن :

ـ أنا أنخلعُ منها .

فقال عثمان :

ـ أنا أوّلُ مَنْ رَضِى ، فإنّى سمِعتُ رسولَ اللّهِ صلّى اللّهُ عليه وسلّم يقول : « أمينٌ فى الأرض ، أمينٌ فى السّماء » .

فقال الزُّبير :

ـ قد رضينا .

وقال سعد :

ـ قد رضينا .

وظلَّ علىٌّ ساكتًا لا ينطِقُ حرفا ، تذكَّرَ قولَ العبّاس له : كلّما عرضوا عليك القولَ ، قلْ : لا ، إلا أن يولّوك ؛ وهمَّ أن يقولَ : لا ، ولكنَّ صوتَ عبدِ الرّحمن رنَّ فى أُذنِه .

ـ ما تقولُ يا أبا الحسن ؟

فقال علىّ :

ـ أعطِنى مَوْثِقًا لتُؤْثِرَنَّ الحقّ ، ولا تتّبعِ الهوَى ، ولا تخصَّ ذا رَحِم ، ولا تألو الأمَّة .

فقال عبد الرحمن :

ـ أعطونى مواثيقَكم على أن تكونوا معى على من بدَّل وغيَّر ، وأن ترضوا من اخترتُ لكم على ميثاقِ اللّهِ ألا أخُصَّ ذا رَحِمٍ لرَحِمِه ، ولا آلوَ المسلمين .

فأخذَ منهم ميثاقًا وأعطاهم مثلَه ، وانصرفَ الجميع وقد تُركَ الأمرُ بين يدَى عبدِ الرَّحمنِ بنِ عوف . وذهب عبدُ الرَّحمنِ إلى علىٍّ وقابلَه على انفرادٍ ، وقال له :

ـ إنَّك تقولُ إنّى أحقُّ من حضر بالأمر ، لقرابتِك ، وسابقَتِك ، وَحُسنِ أثَرِك فى الدّين ، ولم تبعُد ولكن أرأيتَ لو صُرِف هذا الأمرُ عنك فلم تحضُر ، من كنت ترَى من هؤلاء الرَّهطِ أحقَّ بالأمر ؟

قال على :

ـ عُثمان .

وانصرفَ من عندِ عليّ ، وذهب إلى عثمان ، وخلا به ، وقال له :

ـ تقولُ شيخٌ من بنى عبدِ مَناف ، وصِهرُ رسول اللّه صلى اللّهُ عليه وسلَّم ، وابنُ عمِّه ، لى سابقةٌ وفضل ، ولم تبعُد ، فلمَ يُصرفُ هذا الأمرُ عنّى ؟ ولكنْ لو لم تحضُر ، فأىَّ هؤلاءِ الرَّهْطِ تراه أحقّ به ؟

قال عثمانُ دون تردُّد :

ـ علىّ .

وقابل علىٌّ سعدَ بْنَ أبى وقّاص ، وكان معه الحُسين ، فقال لسعد :

ـ اتَّقوا اللّه الذى تساءلونَ به والأرْحام ، إنَّ اللّهَ كان عليكم رقيبا ، اسألُك برَحمِ ابنى هذا من رَسول اللّهِ صلَّى اللّهُ عليه وسلَّم ، وبرَحمِ عمِّى

حمزةَ منك ، ألاَّ تكونَ لعبدِ الرحمن لعثمانَ ظهيرًا عليّ ، فإنّي أُدْلي بما لايُدْلي به عثمان .

وراح عبدُ الرحمنِ بنُ عوْفٍ يدورُ علَى أصحابِ رسولِ اللّهِ صلَّى اللّهُ عليه وسلَّم ، ومن نزل المدينةَ من أُمراءِ الأجنادِ وأشرافِ النّاس ، يُشاورُهم ويسألُهم عمَّن ينتَخبونَه خليفةً لهم ، وبلغ الجَهدُ بعبدِ الرحمن مُنتهاه ، فأرسلَ في طلبِ الزُّبيْر وسعْد ، فوافاه الزُّبيرُ في المسجد ، فسألَه رأيَه للمرةِ الأخيرة ، فقال الزُّبير :

ـ نصيبي لعليّ .

وأقبل سعدٌ في سكونِ اللَّيل ، فقال له عبدُ الرَّحمن :

ـ أنا وأنت كلالَة (ابْنا عمّ) فاجعلْ نصيبكَ لي فأختار .

قال له سعد : إن اخترتَ نفسَك فنعم ؛ وإن اخترتَ عثمانَ فعلِيٌّ أحبُّ إليَّ . أَيُّها الرَّجلُ بايعْ نفسَك ، وأرِحنْا وارفَعْ رءوسَنا .

ـ يا أبا إسحاق ، إني قد خلعتُ نفسي منها ، على أنْ أختار . لا يقومُ مقامَ أبي بكرٍ وعمرَ أحدٌ فيرضَى الناس .

ـ فإنّي أخافُ أن يكونَ الضعفُ قد أدركك ، فامضِ لرأيك ، فقد عَرَفْتَ عهدَ عمر .

وأصبح الصباح ، وخرج النّاسُ إلى المسجد زُرافاتٍ زُرافات ، ليَروْا ما قرّ عليه رأيُ رهْطِ الشُّورَى ، وصلّى النّاسُ الصُّبح ، ثم جمعَ عبدُ الرَّحمنِ الرَّهْط ، وأرسلَ إلى أمراءِ الأجناد ، وتوافدتْ جموعُ النَّاسِ حتّى ازدحمَ المسجد ، ووقف عبدُ الرَّحمن ، فسكت الجميعُ وأعاروه سمعَهم ، فقال :

ـ أيُّها الناس ، إن الناس قد أحبُّوا أن يَلْحقَ أهلُ الأمصارِ بأمصارِهم ، وقد علِموا من أميرُهم .

فصاحَ صائح : إنّا نراكَ لها أهْلا .

فقال عبدُ الرحمن : أشيروا عليَّ بغيرِ هذا .

فقال عمّارُ بنُ ياسر ، وكان يُحبُّ عليّا :

ـ إنْ أردتَ أنْ لا يختلفَ المسلمون ، فبايعْ عليّا .

فصاح المقدادُ الأسْود ، وكان من شيعةِ عليّ :

ـ صدق عمّار ، إنْ بايعتَ عليًّا سمِعْنا وأطعْنا .

فصاح عبدُ اللّه بنُ أبى سَرْح ، وكان يُحبُّ عثمان :

ـ إن أردتَ أن لا تَخْتلفَ قُرَيْش ، فبايعْ عثمان .

فصاح آخرُ مؤمِّنا :

ـ إن بايعت عثمانَ قلنا : سمِعْنا وأطعْنا .

فثار عمّار ، وشتمَ ابنَ أبى سَرْح ، وقال فى سُخريَة :

ـ متى كنتَ تنصحُ المسلمين ؟ !

وسكت ابنُ أبى سَرْح ، فقد تذكّر أنَّ النبىّ قد غضِبَ عليه يومًا ، وأهدرَ دمَه .

وأخَذ بنو هاشم يعُدُّونَ مناقبَهم ، وأخذ بنو أميَّةَ يذكرونَ فضلَهم ، وصاح عمّار :

ـ أيُّها الناس ، إن اللّه عزَّ وجلَّ أكرمنا بنبيِّه ، وأعزّنا بدينه ، فأنَّى تَصْرِفونَ هذا الأمر عن أهلِ بيتِ نبيِّكم ؟ !

فصاح أحدُ أنصارِ بنى أمية :

ـ لقد عدوتَ طورَك يابنَ سُميَّة (أمِّ عمار) ، وما أَنتَ وتأميرَ قريش لأنفسِها ؟

عيَّره نصيرُ بنى أميَّةَ بأنّه عبدٌ ليس له فى الأمرِ شىء ، ونسِىَ أنَّ الإسلامَ قد سوَّى بين العبيد والأحرار .

واقتربَ سعدُ بنُ أبى وقّاص من عبدِ الرّحمن ، وقال له :

ـ يا عبدَ الرّحمن ، افرُغْ قبلَ أن يفتَتن النّاس .

فأشارَ عبدُ الرّحمن ، فلاذُوا بالصمت ، فقال :

ـ إنّى قد نظرتُ وشاورت ، فلا تجعلُنَّ أيُّها الرَّهْطُ على أنفسِكم سبيلا .

ودعا عليًّا فقال :

ـ عليك عهدُ اللّه وميثاقُه لتعملَنَّ بكتابِ اللّهِ وسُنَّةِ رسولِه وسيرةِ الخليفتيْن من بعدِه ؟

وفرِح أنصارُ علىّ ، حسِبوا أنَّ عبدَ الرَّحمنِ قد بايعَ عليًّا للمسلمين ، ولكنَّ عليًّا قال :

ـ أرجو أن أفعل ، وأعملَ بمبلغِ علمى وطاقتى .

لم يشأْ علىٌّ أن يتقيّد بسيرةِ الخليفتين أبى بكرٍ وعمر ، بل رأى أن يعملَ بمبلغِ علمِه وطاقتِه واجتهادِه ، فدعا عبدُ الرَّحمنِ عثمان ، وقال له :

ـ عليك عهد اللّه وميثاقُه لتعملَنَّ بكتابِ اللّهِ وسنّة رسولِه وسيرةِ الخليفتين من بعدِه ؟

فقال عثمان :

ـ نعم .

قبِل عثمـانُ أن يعمَلَ بكتـابِ اللّـهِ وسنَّةِ رسولِه وسيرةِ الخليفتين من قَبْلِه ، فقال له عبد الرحمن :

ـ إنّي أُبايُعك أميرًا للمؤمنين .

فثار أنصارُ عليّ ، وأظهروا استياءَهم ، وقال عليٌّ لعبد الرحمن :

ـ ليسَ هذا أوّلَ يومٍ تظاهرتُم فيـه علينـا ، فصبرٌ جميل ، واللّهُ المستَعانُ على ما تصفون .

وأسرعَ النّاسُ إلى عثمان ، وأخذوا يبايعونَـه أميرًا للمؤمنين ، وتلكّأ عليّ ، فأسرع إليـه عبدُ الرَّحمنِ وقرأ : « من نكَثَ فإنّما ينكُثُ على نفسِه ، ومن أَوْفَى بما عاهدَ عليهِ اللّه ، فسيُؤتيه أجرًا عظيما » .

فراح عليٌّ يشقُّ الناس ، حتى بلغ عثمانَ الجالسَ على الدَّرجةِ الثانيةِ من المِنبر ، وهو يقول :

ـ خِدعةٌ أيُّما خِدعة .

وتقدَّم منه وبايَعه ، فأصبح عثمانُ بنُ عفّانَ أميرَ المؤمنين ، وثالثَ الخلفاء الرّاشدين .